

## أفضل الأعمال في شهر رمضان

ومتى جسد الإنسان الاستقامة بحافظته على التكاليف العبادية، وامتلأ الأوامر، واجتنب النواهي الإلهية، يكون قد حقق الغرض من خلقه وإيجاده في الحياة، المتمثل في تجسيد العبودية الحقّة ﷻ تعالى.

فحين يتحدث القرآن الكريم عن غرض خلق الإنسان، وغاية وجوده في الحياة، يبين أن ذلك يتمثل في أن يكون الإنسان عابداً ﷻ عز وجل، فيقول سبحانه وتعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)

وسبق أن تحدثت عن معنى هذه الآية في موضوع لي بعنوان (الإنسان والكمال) فكان مما قلته هناك تحت عنوان (ما هي الغاية من خلقنا وإيجادنا في الحياة) : (نحن نعلم أن ﷻ عز وجل حكيم، لا يخلق شيئاً لهواً ولا لعباً، وأنه لا يد من حكمة إلهية بالغة مترتبة على كل خلق في الحياة، ذلك أن ﷻ تعالى هو الكمال المطلق المنزه عن كل نقص وقبيح، المتصف بالحكمة وحسن التدبير.

فهو سبحانه العليم الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها، ولا يفعل إلا لغاية، ولا يصنع إلا لهدف، وقد قال تبارك اسمه الجليل : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبيذ، لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) وقال عز شأنه العظيم : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون، فتعالى ﷻ الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم)

فهو تبارك وتعالى أحكم من أن يخلقنا عبثاً، أو يوجدنا لعباً ولهواً، بل خلقنا لحكمة وأوجدنا لغاية، وقد حدثنا القرآن الكريم عن تلك الحكمة في قوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) مما يعني أنه تعالى إنما أوجدنا لنكون عابدين له عز وجل.

ويجب أن نلتفت إلى أنه سبحانه وتعالى جعل غرض الخلقة هو أن نكون عابدين له عز وجل، فقال : (ليعبدون) ولم يقل – مثلاً – : (لأكون معبوداً، أو ليكونوا عبيداً) فلماذا ذلك؟!

الجواب : لم يقل سبحانه (لأكون معبوداً) لأنه عز وجل المعبود على كل الأحوال، وبغض النظر عن إيجاد الموجودات، وخلق المخلوقات من عدم ذلك، فكونه سبحانه معبوداً ليس متوقفاً على وجود العابدين، ولو فرضنا أنه جل وعلا لم يخلق شيئاً، فهذا لا ينفي ولن ينفي أن يكون هو المعبود، وذلك لأن هذه الصفة

ثابتة له غير متوقفة على وجود غيره، فقبل وجود الخلائق ومع وجودهم وبعد فنائهم هو المعبود سبحانه وتعالى.

ولم يقل (ليكونوا عبيدا) لأنهم عبيد له، سواء آمنوا أو كفروا به، أطاعوه أو عصوا أو أمره ونواهيه، عبده أو تمردوا على لوازم العبودية ومرقوا منها، فكفر الإنسان بالله لا يصيره حرا، ولا يخرج عن رِق العبودية له سبحانه وتعالى، بل هو مع إيمانه بالله أو كفره به هو عبد له عز وجل، تماما - و- المثل الأعلى - كما هو الحال في علاقة الولد بأبيه، فهو ولده سواء أحسن إليه وقام ببره، أو عقه وأساء إليه.

فكما أن عقوق الولد لأبيه لا يخرج عن كونه ولده حقيقة، فكذلك كفر الإنسان بربه، لا يخرج عن حقيقة أنه ملكه وعبده سبحانه وتعالى.

وكون كفر الإنسان بربه لا يخرج من مملوكيته ورق العبودية له، هو المصحح لعقوبته على كفره، وتمرده على سيده، وعدم امتثاله لأوامره ونواهيه، وإلا لو كان الإنسان بمروقه من رِق العبودية، يخرج من مملوكية الله، ويكون حرا، ولا سلطان عليه، لكان تعذيبه على كفره، ومعاقبته على تمرده ظلما له (وما ربك بظلام للعبيد)

وإذا كان الأمر كما شرحناه، فعليه لا يصح أن يكون التعبير في الآية الكريمة بـ (لأكون معبودا، أو ليكونوا عبيدا) وإنما الصحيح ما ورد في الآية الكريمة (ليعبدون) أي ليلتزموا بلوام العبودية لله جل وعلا.

فنحن نعلم أن لكل منصب ووظيفة ولوازم، فالمعلم له وظيفة هي تعليم الطلاب وتدريبهم، وواجبه أن يلتزم بلوازم هذه الوظيفة من القيام بالتربية والتعليم، ورب الأسرة له وظيفة هي إدارة شؤون الأسرة وتربيتها وتوفير احتياجاتها، وواجبه هو الالتزام بلوازم هذا المنصب الذي هو فيه، والقاضي له وظيفة، هي أن ينظر في القضايا المرفوعة إليه ويدرسها ويقضي بين المترافعين بالحق والعدل، وواجبه هو الالتزام بلوازم وظيفته، وأداء الدور الذي يوجهه عليه منصبه وموقعه... وهكذا كل وظيفة لها لوازم، وعلى من يشغلها أن يلتزم بلوازمها.

وإذا كان الحال كذلك، ونحن نعلم أن الإنسان عبد لله لأنه سبحانه وتعالى خالقه ومالكه، فهذا يعني أن للإنسان وظيفة تجاه ربه هي الالتزام بلوازم العبودية، المتمثلة في أن لا يجد الإنسان لنفسه استغلالا عن

□ عز وجل في كل شؤون حياته الخاصة والعامة، وعلى جميع الأصعدة والمستويات، وأن تكون حركته في الحياة على مستوى الأقوال والأعمال وفق إرادة □ جل وعلا، كما تقتضي ذلك وظيفته التي يشغلها، وهي العبودية □ تعالى.

وإذا وضح لنا ذلك نعود الآن إلى الآيات الكريمة لنرى أن □ جل وعلا - بعد أن بين أن الغرض من خلق الإنسان وإيجاده في الحياة هو أن يلتزم بلوازم العبودية، عقّب على ذلك بقوله سبحانه وتعالى: (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن □ هو الرزاق ذو القوة المتين)

وبهذا البيان ينفي سبحانه أن يكون محتاجا إلى خلقه، إذ هو القوي المتين الذي يستحيل عليه العجز والضعف والحاجة والافتقار، ويبين جلت قدرته وعز سلطانه أنه تعالى إنما خلق الخلق وأمرهم بالعبادة ليعود النفع والخير إليهم دونه عز وجل.

وبهذا البيان الإلهي الذي تؤكدُه البداهة العقلية، يتضح لنا أن ثمرة العبادة وفوائدها تعود إلينا وليس إليه سبحانه وتعالى، إذ أننا الفقراء على الإطلاق، وهو الغني المطلق الذي لا يحتاج إلى أحد من خلقه، ولا يفقره كفر العباد كما لا يغييه إيمطانهم، ولا تنفعه طاعتهم وعبادتهم كما لا تضره معصيتهم وتمردهم، وقد قال عز سلطانه: (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى □ و□ هو الغني الحميد) وقال تبارك اسمه: (إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن □ لغني حميد)

فنسب الفقر إلينا على الإطلاق، والغنى إلى ذاته المقدسة على الإطلاق، وهذا يعني أننا الفقراء إليه في كل شيء على الإطلاق، وهو الغني عنا وعن كل شيء في كل شيء على الإطلاق.

وإذا كان الإنسان هو المستفيد من العبادة، فلعل من أهم وأعظم الثمرات التي يجنيها من وراء عبادته، هي أن العبادة □ تعال، تمنح الإنسان الحرية الكاملة، وتعنتقه من ذل العبودية لكل شيء، ولأي شيء آخر في الحياة.

فمتى آمن الإنسان بربه، وجسد العبودية الحق له سبحانه وتعالى، يتيقن أن لا سلطة لأحد عليه إلا لله، وأنه ليس مملوكا لأحد سواه سبحانه وتعالى، حينها يتحرر من ذل العبودية للآخرين، ولا يسمح لأي قوة في الوجود أن تستعبده وتسترقه، لا سلطة المال والثروة، ولا سلطة الجاه والمكانة الاجتماعية المرموقة، ولا سلطة الوظائف الكبيرة والمناصب الرفيعة، ولا سلطة الغرائز والشهوات... فهو متيقن أنه فقط عبد لله، ولن يركع ولن يخضع لأحد سواه سبحانه وتعالى، لأنه لا يقبل ولن يقبل أن يكون عبدا، وقد

ولدت أمه حرا.

وهكذا نرى أن تجسيد العبودية □ تعاليد، والتزام الإنسان بلوازمها، يمنحه الحرية التي يبحث عنها، والتي لا قيمة للحياة بدونها، إذ أنها تحرره من الخنوع للطواغيت، وتخلصه من عبودية اليهود، والانسحاق مع الغرائز والشهوات والمغريات، وتبعده عن الرذيلة والفجور، وتربيته على العفة والطهارة والفضيلة، وتوصله إلى أعلى درجات الكمال الإنساني، ليكون كاملاً شأنه شأن المخلوقات الأخرى التي خلقها □ كاملة.

فلو ألقينا نظرة فاحصة على هذا الكون العظيم لرأيناه - بكل أجزائه ومن أصغر ذرة إلى أكبر مجرة فيه - يسير وفق نظم وقوانين دقيقة جداً لا يتعداها ولا يحيد عنها ولو بمقدار شعرة، كما أكدت ذلك البحوث العلمية الحديثة، باكتشافاتها المهمة جداً حول دقة نظام الكون، وعظمة الإبداع في خلقه وتكوينه.

وفي القرآن الكريم بعض الآيات التي تتحدث عن النظام الكوني مثل قوله سبحانه : (وآية له الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قد رنا منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع □ الذي أتقن كل شيء)

فكل شيء في الوجود خلق بإبداع فريد، وبإتقان وإحكام لا نظير لهما أبداً، فهو متكامل في خلقه من جميع الجوانب والجهات.

والإنسان هو سيد المخلوقات، وأشرف الموجودات، فلا يمكن أن يشذ عن هذه القاعدة، ويتخلف عن الكمال، وهو يعيش في عالم الكمال.

فالإنسان متكامل من جهة الخلق المادي، فقد خلقه □ في أجمل صورة وأحسن تقويم، وركّب فيه جميع الأعضاء التي يحتاج إليها، ومكّن هذه الأعضاء من القيام بوظائفها على أكمل وجه، ومن دون أي تدخل من الإنسان في ذلك، لا بتوجيه ولا إرشاد ولا أمر ولا نهى.

بل أن أكثر هذه الأعضاء تقوم بوظائفها من دون أن يشعر الإنسان بها ويعملها، كما هو الحال في المعدة وهضمها للطعام، والكبد واستخلاصه المواد النافعة من الغذاء، والقلب وضخه الدم إلى جميع أجزاء

الجسم، وتزويدها بالغذاء والأكسجين.. إلى غير ذلك من المهام التي تمارسها الأعضاء من دون أن يشعر بها الإنسان إطلاقاً .

كما أن الإنسان في إحساسه بالتعب والإرهاق، والجوع والعطش، وشعوره بالحاجة إلى النوم والراحة، والطعام والشراب، وكذا تحرك الغريزة الجنسية لديه... وما شابه ذلك من أمور، هو غير محتاج إلى معلم يعلمه ذلك، بل أنه يحس بهذه الأشياء بنفسه، من دون أي تدخلات خارجية مهما كان نوعها.

وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على كمال الإنسان في بنيته المادية، وخلقته الجسدية، شأنه في ذلك شأن سائر المخلوقات الأخرى التي خلقها الله كاملة.

وكما أن الإنسان كامل في بنيته المادية، كذلك هو على مستوى الروح، إذ أن الله تبارك وتعالى خلقه حراً مختاراً، وأودع فيه نفساً ألهمها الفجور والتقوى، ومكنها من التفريق بينهما، كما أعطاه القدرة على فعل ما تشاء منهما، كما يقول سبحانه : (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقوها، وقد أفلح من زكاهها، وقد خاب من دساها)

فمن كمال النفس الإنسانية أن الله عز وجل حين خلقها، ميزها بأن ألقى في روعها الخير والشر، أو الفجور والتقوى حسب التعبير القرآني، كما منحها القدرة على التمييز بين ما هو شر ومن الفجور، وبين ما هو خير ومن التقوى، حتى في الفعل الواحد، كما هو الحال — مثلاً — في معرفتها وتفريقها بين النكاح الشرعي، وبين الزنا، وأن الأول من الخير والتقوى، والثاني من الشر والفجور، رغم عدم الاختلاف بينهما من حيث الفعل والممارسة.

وكما أن الله عز وجل ألهم النفس الإنسانية الفجور والتقوى، وأعطاه القدرة على التفريق بينهما حتى في الفعل الواحد، كذلك جعلها نفساً حرة مختارة، يمكنها أن تفعل ما هو فجور، أو أن تفعل ما هو تقوى، فإن فعلت الفجور أصبحت نفساً شيطانية، وإن فعلت التقوى أصبحت نفساً ملائكية، مما يعني أن جوهر الإنسان الحقيقي ليس في بنيته المادية، وإنما في نفسه حقيقة.

ولا يمكن للإنسان أن يصل إلى الكمال ما لم يهتم بهذه النفس وبتربيتها على العفة والفضيلة، تمام كما يقول أحد الشعراء :

أقبل على النفس واستكمل فضايلها

فعلى الإنسان أن يبحث عن كماله، ويجهد نفسه في الوصول إليه، وذلك بسلك جميع الطرق التربوية، التي تزكي النفس، وتطهر القلب، وتبني الإنسان... فإنه متى استقامت النفس، وصفت الروح، وتعلقت بخالقها، وتقيدت بأحكامه وتشريعاته الراشدة، أصبح الإنسان إنساناً كاملاً، حتى وإن كان فاقداً لبعض الأمور المادية الفانية، كالجمال والجاه والمنصب والشهرة، أو كان مصاباً ببعض العاهات الجسدية، كالصمم والعمى والعرج... فكل هذه الأمور لا تؤثر على إنسانية الإنسان، ولا تخدم كماله، إذا كانت النفس صافية، والروح نقية.

أما إذا انحرفت النفس عن الصراط المستقيم، وتشوهت الروح بالآثام، واسود القلب بالذنوب والمعاصي، فإن الإنسان يخرج من إنسانيته، ويصبح كالبهيمة، حتى وإن أعطي بهاء محمد، وجمال يوسف، وملك سليمان.

وكما أن الإنسان كامل في خلقته المادية، مطلوب منه أن يتكامل أيضاً على مستوى النفس والروح، ليكون كاملاً من كل الجوانب والجهات، ويصبح ملكاً يمشي على الأرض.

والواقع أن الفرق كبير جداً بين الكمال الجسدي والكمال الروحي للإنسان، إذ أن الكمال الجسدي كمال قسري لا دخل للإنسان فيه، أما الكمال الروحي فهو إنما يتم باختيار الإنسان ورغبته، ذلك أن الله تبارك وتعالى حينما خلق الإنسان هياً له الأسباب التي تبني روحه وتهذب نفسه وتقوم سلوكه وترفعه إلى أعلى عليين، وتأخذ بيديه إلى الخير وتهديه إلى الحق والنور والهدى... كما هياً له جميع الأسباب التي توصله إلى الشقاء والتعاسة، وترده إلى أسفل سافلين، وترديه في الأخطار والمهلك.

فالله عز وجل أوضح الطريق وأنار السبيل للإنسان، وبين له الهدى والضلال والحق والباطل، والخير والشر... ثم وهبه الحرية والإرادة والاختيار، وأعطاه حق تقرير مصيره، وجعله المسؤول الأول والأخير عن نفسه وتصرفاته في الحياة.

فقد قرر المولى الباري جل وعلا بأنه : (لا إكراه في الدين) (فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها) (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) (بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره)

فالإنسان هو المسؤول عن نفسه، وهو الذي يتحمل نتيجة تصرفاته في الحياة، ذلك أن الله تعالى - كما أشرنا - أعطاه نفساً أودع فيها غرائز الفجور والتقوى، وأعطاه القدرة على تربيتها وإيصالها إلى الكمال، كما أعطاه القدرة على إهمالها ودسها في الذنوب والمعاصي والآثام، فهي نفس قابلة للنقص والكمال، وكل إنسان بإمكانه أن يختار من الأمرين ما يشاء.

والإنسان الواعي هو الذي يختار لنفسه الكمال على النقص، والتقوى على الفجور، لأنه يعلم أنه إنسان بروحه وليس ببدنه، فإن البدن يبلى ويفسد، وأما الروح فإنها باقية خالدة حتى وإن مات البدن ودس في التراب.

ومن أجل هذا اهتم الإسلام بالروح، وبحث على تربيتها، وأكد على ضرورة إصلاحها، وبين للإنسان المناهج التربوية الصحيحة التي يجب أن يلتزم بها، ويسير على نهجها، من أجل إصلاح نفسه، وبناء روحه، وتقويم سلوكه، ليصل إلى أعلى درجات الكمال الإنساني، ويصبح إنساناً ملائكياً يمشي على الأرض.

وتأتي العبادة في مقدمة هذه المناهج التربوية المهمة، وذلك لما للعبادة من دور مهم و كبير في نزع الإنسان من عالم الماديات، وربطه بعالم المعنويات، حيث الله والدار الآخرة والنعيم المقيم.

هذا ما قلته في موضوعي (الإنسان والكمال) وعلى ضوئه نخلص إلى نتيجة مهمة جداً، ملخصها : أن هدف الإسلام هو بناء الإنسان، وإعادة صياغته من جديد، ليكون إنساناً سوياً، مجسداً للاستقامة في كل شؤون حياته، وذلك من خلال الاهتمام ببناء روحه، وتهذيب نفسه، وتطهيرها من كل الشوائب التي تعيق الإنسان من الوصول إلى كماله المنشود، الذي يمكنه من تأدية دوره في الحياة، وهو أن يلتزم بلوازم العبودية لله سبحانه وتعالى.

ولا يمكن للإنسان أن يتخلص من الرذائل، ويتحلّى بالفضائل، ويعمل على بناء نفسه، وإيصالها إلى أعلى مدارج الكمال الإنساني، إلا من خلال التزامه بمنهجين، هما على النحو التالي :

#### المنهج الإيجابي :

ويتمثل في ضرورة الالتزام بالتكاليف العبادية التي فرضها الله على عباده، سواء كانت واجبة أو مستحبة، كالصوم والصلاة والحج، والدعاء وتلاوة القرآن... وكذا الامتنان للأوامر الإلهية المتعلقة بسلوكه العملي في الحياة، كالصدق والأمانة والإخلاص والوفاء... إلى ما هنالك من تكاليف عبادية وأوامر

## المنهج السلبي :

ويتمثل في ضرورة الابتعاد عن كل ما حرمه الله عليه، أو نهاه عنه، سواء كان من المحرمات أو المكروهات، كشرب الخمر وقتل النفس المحترمة والغيبة والنميمة والزنا والغش والربا والخيانة... إلى غير ذلك مما حرمه الله علينا، ونهانا عن قوله أو فعله.

ولا يغني الإنسان أن يلتزم بأحد هذين المنهجين ويهمل الآخر، كأن يحافظ مثلا على التكاليف العبادية من صلاة وصوم وغير ذلك، ثم يرتع في الذنوب والمعاصي والآثام.

فإن ذلك لن ينفعه شيئا، ولن يفيدته في بناء روحه وربطها بالله جل وعلا، بل لا بد له من المحافظة على المنهجين معا، فيؤدي الواجبات من جهة، ويترك المحرمات من جهة ثانية.

بل أن الإنسان لا يمكنه أن يلتزم بالمنهج الإيجابي المتمثل في المحافظة على الواجبات، ما لم يلتزم بالمنهج السلبي المتمثل في هجر المحرمات، فهناك ملازمة بين المنهجين ولا يمكن التفكيك بينهما بأي حال من الأحوال.

وعلى ضوء هذا البيان نصل إلى نتيجة في غاية الأهمية، و يجدر بنا الالتفات إليها، وهي : أن الورع عن المحرمات الذي هو أفضل الأعمال كما يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لا يتمثل فقط في ترك المحرم، وإنما في عدم ترك الواجب أيضا.

وكما قلنا في الجزء الأول : الورع عن المحرمات يعني أن لا تترك واجبا، ولا تفعل محرما، فجواب الرسول صلى الله عليه وآله بأن أفضل الأعمال الورع عن محارم الله، هو جواب جامع مانع.

أما كيف يكون ذلك؟ فجوابه في الجزء القادم إن شاء الله تعالى.

